

سورة الكهف (الآيات: 98 - 101)

25



أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف جزاء المستهزئين بآيات الله ورسله.
- 2- أن أدرك أهمية الإخلاص في قبول الأعمال.
- 3- أن أخلص عملي لله تعالى وأحذر الرياء المحبط للعمل.

تمهيد

بعد أن انتهت آيات الدرس السابق من سرد قصة ذي القرنين وما فيها من العجائب والعبر، انتقلت الآيات في هذا الدرس إلى الحديث عن استبدال بالولاء لله ورسله الولاء لمن هو عبد الله داخل تحت سلطانه وقهره، مذكرة بأنهم أخسر العاملين.

فلم كان هؤلاء أخسر العاملين؟ ولماذا أحبط الله عملهم؟ وما عاقبة المستهزئين بكتاب الله ورسله ودينه؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝٩٨﴾ **98** ﴿قُلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِ أَعْمَالًا الَّذِينَ يَرْضَوْنَ سَعْيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَهُمْ يَصِيبُونَ أَنْتَعَمُونَ صُنْعًا ۝٩٩﴾ **99** ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبَّطَتْ أَعْمَالَهُمْ فَلَا يُنْفَعُونَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَّا ۝١٠٠﴾ **100** ﴿إِلَّا جَزَاءُ لَهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي نُزُلًا ۝١٠١﴾ **101** ﴿[الكهف: 98 - 101].

الفهم

الشرح:

أَعْتَدْنَا: هيأنا وأعدنا.

الْأَخْسَرِينَ: الأرذلين المفلسين تجارة وبضاعة.

سَعَيْلُهُمْ: عملهم وجهدهم.

صُنْعًا: عملاً وسعيًا.

وَزَنًا: قيمة وأجراً وثواباً.

فُزُوا: مسخرة وتهكما واستخفافاً.

استخلاص مضامين الآيات:

- 1- ما عاقبة الكفر والإشراك بالله تعالى؟
- 2- من هم أخسر العاملين؟ ولماذا؟
- 3- ما قيمة أعمال الكافرين يوم الجزاء؟ وبماذا استحقوا عذاب جهنم؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: جزاء الكافرين:

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾، الاستفهام إنكاري توبيخي، غايته التشنيع على المشركين في اعتقاداتهم الباطلة التي يتولون فيها من يزعمون لهم التصرف مع الله تعالى في الضر والنفع، والعطاء والمنع، فيرجونهم ويخافونهم، ويتقربون إليهم بالنذور والقرابين.

وقرأ الجمهور: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ بكسر السين، بمعنى: أظنوا؟ وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْمَعْنَى: أَفَحَسِبُوا أَنْ يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ. وقرأ ابن كثير ويعقوب بخلف عنهما: «أَفَحَسَبَ» بسكون السين وضم الباء، بمعنى: أكافيهم ومنتهى غرضهم؟ وهذا أبلغ في الذم؛ لَأَنَّهُ جَعَلَهُ غَايَةَ مُرَادِهِمْ. وَالْمَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكْفِيهِمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا حَسِبُوا. وفي مصحف ابن مسعود: (أفطن الذين كفروا)، وهي قراءة شاذة تفسيرية تصلح حجة لقراءة الجمهور.

والمراد بقوله: ﴿عِبَادِي﴾ قيل: الشياطين، وقيل: الأصنام لأنها خلقه وملكه. قال أبو حيان: «وَيَظْهَرُ أَنَّ فِي الْكَلَامِ حَذْفًا، وَالتَّقْدِيرُ: أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ فَيُجِدِي ذَلِكَ، وَيَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ الْإِتِّخَاذِ». [البحر المحيط: 7 / 229].

وقوله: ﴿إِنَّا آتَيْنَاكَ نَجْمًا مِّنَ الْكَافِرِينَ نَزْلًا﴾، هذا الجواب على الاستفهام، أي: أَعَدَدْنَا وَهَيَأْنَا وَيَسَّرْنَا. كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَافِرِثَةَ﴾ [يوسف: 31]. وقرأ أبو عمرو بخلف عنه ﴿نَزْلًا﴾ بِسُكُونِ الزَّايِ. وَ«النَّزْلُ»: مَوْضِعُ النُّزُولِ، وَهُوَ أَيْضًا مَا يُقَدَّمُ لِلضَّيْفِ وَيُهَيَّأُ لَهُ، وَلِلْقَادِمِ مِنَ الطَّعَامِ، فَهُوَ بِمَعْنَى قَرَى وَضِيافَةٍ. وَالنَّزْلُ هُنَا يَحْتَمِلُ التَّفْسِيرَيْنِ. وفيه استعارة تهكمية. وَقِيلَ: جَمْعُ نَازِلٍ، وَنَصْبُهُ عَلَى الْحَالِ نَحْوُ: شَارِفٍ وَشُرُفٍ.

ثانيا: صفات الأخسرين أعمالا:

قال تعالى: ﴿قُلْ نَبِّئْكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾، الخطاب للنبي ﷺ. أي: قل يا محمد للكافرين على جهة التوبيخ: هل خبركم بالذين خسروا أعمالهم وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم مع ذلك يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعونه، فإذا طلبوا ذلك منك فقل لهم: ﴿أَوَلَيْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ الآية.

وهذه صفة المخاطبين من كفار العرب المكذبين بالبعث بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَوَلَيْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

وقوله: ﴿بِالْخَسِرِينَ﴾ اسم تفضيل من خسر. وَنَصَبَ ﴿أَعْمَالًا﴾ عَلَى التَّمْيِيزِ المحول، والتقدير: الذين خسروا أعمالهم. وَجَمَعَ الأَعْمَالِ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْمُشْرِكِينَ فِي الضَّلَالِ مُخْتَلِفَةٌ، وَلَيْسُوا مُشْتَرِكِينَ فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ.

وقوله: ﴿إِلَّا يَرْضَىٰ لَعْنُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ضل: بمعنى بطل وذهب وخاب. والسعي: العمل. أَي: عَمِلُوا أَعْمَالًا بَاطِلَةً عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةٍ مَشْرُوعَةٍ مَرْضِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ. ﴿وَلَعْنُهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، الصُّنْعُ وَالصَّنْعَةُ وَالصَّنِيعُ وَاحِدٌ. أَي: يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ حَسَنَةٌ تَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿يَحْسِبُونَ﴾ بكسر السين، مضارع «حسب» بكسرها، وقرأ باقي السبعة «يحسبون» بفتحها على القياس في «فعل» المكسور العين، إذ في مضارعها وجهان: كسر العين وفتحها، والفتح أكثر وأقيس.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أَي: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْوَحْيِ وَمَعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَبِیَوْمِ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ.

وقوله: ﴿فَعَيَّجَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أَي: فَبَطَلَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفَسَدَتْ وَذَهَبَتْ سَدَى، يَرِيدُ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ عَمَلٍ خَيْرٍ. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ آيَاتُنَا وَلَا يَنْصُرُهُمْ الْعُنَاقُ﴾، قَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿فَلَا تُغْنِي﴾ بِالنُّونِ «وَزَنَّا بِالنَّصَبِ» عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ «فَلَا يُقِيمُ» بِالْيَاءِ لِمُنَاسَبَةِ قَوْلِهِ: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، وَقَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ أَيْضًا «يَقُومُ» بِفَتْحِ الْيَاءِ، كَأَنَّهُ جَعَلَ «قَامَ» مُتَعَدِّيًا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَابْنِ مُحِيسِنٍ وَيَعْقُوبَ بِخَلْفٍ عَنْهُمْ «فَلَا يَقُومُ» مُضَارِعُ قَامَ «وَزَنَ» مَرْفُوعٌ بِهِ. وَكُلُّهَا قَرَأَاتٌ شَاذَةٌ خِلَافَ قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ.

ويحتمل قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ آيَاتُنَا وَلَا يَنْصُرُهُمْ الْعُنَاقُ﴾ وَزَنَ الأَعْمَالِ مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ، وَدَلَّتِ الْأَدْلَةُ الصَّحِيحَةُ أَنَّ أَعْمَالَ الْكَافِرِ تَوَزَنَ كَأَعْمَالِ الْمُؤْمِنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْآفِئَةِ فَلَا تُخْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَهِّنَ بِهَا سَائِرَ الشَّيْءِ﴾

[الأنبياء: 47]، ولذلك حمل بعضهم الآية على حذف الصفة، فقال التقدير: فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا نافعاً، وقيل: إِنَّهُمْ لَا حَسَنَةً لَهُمْ تُوزَنُ فِي مَوَازِينِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَا حَسَنَةً لَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ. وحمله بعضهم على المجاز كأنه قال: فلا قدر لهم عندنا يومئذ.

قال الطبري رحمه الله: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَلَا نَجْعَلُ لَهُمْ ثِقَلًا، وَإِنَّمَا عَنَى بِذَلِكَ: أَنَّهُمْ لَا تَنْتَقِلُ بِهِمْ مَوَازِينُهُمْ؛ لِأَنَّ الْمَوَازِينَ إِنَّمَا تَنْتَقِلُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَلَيْسَ لَهُؤُلَاءِ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَتَنْتَقِلُ بِهِ مَوَازِينُهُمْ» [جامع البيان: 16 / 35].

ثالثاً: أسباب بطلان العمل :

قال تعالى: ﴿عَالِمًا جَزَاؤُهُمْ جَلَعْتُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ آلِهَةً﴾، الإشارة في قوله: ﴿عَالِمًا﴾ إلى إحباط أعمالهم وعدم إقامة الوزن لهم أو لأعمالهم. ويجوز الإشارة بـ ﴿عَالِمًا﴾ إلى الجمع فتكون بمعنى «أولئك». و﴿عَالِمًا جَزَاؤُهُمْ﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، و﴿جَلَعْتُمْ﴾ بدل. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿عَالِمًا﴾ مُبْتَدَأً و﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ مُبْتَدَأُ ثَانٍ و﴿جَلَعْتُمْ﴾ خَبَرُهُ. وَالْجُمْلَةُ خَبَرُ الْأَوَّلِ، وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ، أَي: جَزَاؤُهُ. والباء في «بما» سببية، و«ما» مصدرية، والتقدير: بسبب كفرهم.

والآيات تحتمل أن يراد بها آيات الوحي، وتحتمل معجزات الأنبياء. والهزؤ السخرية والتهمك والاستخفاف والهزل. وتقدم مثلها في السورة، وما فيه من قراءات.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ آلِهَةً﴾ هو نظير قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا اعْلَمُوا مِنَّا شَيْئًا﴾، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: 8].

رابعاً: لطائف وفوائد:

- بين قوله: ﴿يَعْسَبُونَ﴾ وقوله: ﴿يَعْسَبُونَ﴾ ما يسمى جناس التّصحيّف أو الجناس المصحف، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ النَّقْطُ فَرْقًا بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ، فالفرق بين الكلمتين هنا اختلاف النقط بين النون والباء. وهو من المحسنات اللفظية.

- روى البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَأُوا: ﴿فَلَا تُغْنِي عَنْكُمْ يَوْمَ الْفِيلَةِ وَزَنًا﴾». [صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن - سورة الكهف - باب ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه...﴾، حديث [4452].

- دلت آيات الدرس على التحذير من الاستهزاء بآيات الله ورسله عليهم السلام؛ لأنه من أعظم المهلكات، وأسباب الخسران في الدنيا والآخرة، قال تعالى عن قول المنافقين في غزوة تبوك: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَاذْبَحْ بِآيَاتِنَا وَارْسُلِ بِرُسُلِكِ ۚ كُنْتُمْ تَسْتَفْزِئُونَ ۚ لَا تَعْتَذِرُونَ فَمَا كَانَ بِكُمْ مِنْ عَذَابٍ إِلَّا نِيرَانُ ۚ وَكَانَ سَأَلُهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ كُنْتُمْ تَسْتَفْزِئُونَ ۚ﴾ [التوبة: 65 66]. فمن حقوق الله على عباده تعظيم كلامه عز وجل وتوقير أنبيائه ورسله عليهم السلام.

- قال ابن العربي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَلًا﴾: «وَيَرْجِعُونَ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: الْكُفَّارُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالتَّكْلِيفِ...، الصَّنْفُ الثَّانِي: أَهْلُ التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ... الصَّنْفُ الثَّالِثُ: الَّذِينَ أَفْسَدُوا أَعْمَالَهُمْ بِالرِّيَاءِ وَضَيَّعُوا أَحْوَالَهُمْ بِالْإِعْجَابِ... وَيَلْحَقُ بِهِؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ كَثِيرٌ، وَهُمْ الَّذِينَ أَفْنَوْا زَمَانَهُمُ النَّفْسِ فِي طَلَبِ الْخَسِيسِ». [أحكام القرآن: 3 / 244].

التقويم

- 1- ما المراد بقوله تعالى: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَلًا﴾؟
- 2- كيف تجمع بين قوله: ﴿فَلَا تُغْنِي عَنْكُمْ يَوْمَ الْفِيلَةِ وَزَنًا﴾ وما ثبت من وزن الأعمال؟
- 3- ما المحسنُ البديعي بين قوله: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ وقوله: ﴿يُحْسِنُونَ﴾؟ واذكر نظيراً له من القرآن.
- 4- ما سبب إحباط الله أعمال المذكورين في الآيات؟ وما العبر المستفادة من ذلك؟

الاستثمار

عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت: «قلت: يا رسول الله، ابن جُذعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

[صحيح مسلم: كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، حديث 214].

- 1- من هو عبد الله بن جذعان؟ وماذا كان يعمل في الجاهلية؟
- 2- بم علل الحديث عدم انتفاعه بعمله؟ استدل على الجواب بآيات مناسبة.

الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيات: 102 - 105 من سورة الكهف وأجيب عن الآتي:

- 1- أذكر ما ورد في فضل هذه الآيات من ختام سورة الكهف.
- 2- ما المقصود بجنات الفردوس؟
- 3- أشرح الكلمات الآتية حسب السياق: **حَوْلًا** - **لِكَلِمَاتٍ رَبِّي** - **لَتَعِدَّ** - **مَدَدًا**.